ابن مرزوق الحفيد وإسهاماته العلمية بتلمسان الزيانية

د/قاسمي بختاوي
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة الشلف

ملخص:

Ibne Marzouk, le petit-fils et ses exploits scientifiques à Tlemcen zianide.
Tlemcen a donné naissance à plusieurs savants . Parmi eux : Ibne Marzouk, le petit-fils .Qui était cet homme ?
Comment était le contexte qui l'a formé§
Comment était classé parmi ses contemporains ?
Quel était son chef d'œuvres ?

مقدمة:

تعد تلمسان من الحواضر الإسلامية العريقة. تمتد جذورها في أعماق التاريخ. تبوأت مكانة مرموقة بين نظيراتها عبر العصور. زاد شأنها، وعظمت مكانتها في عهد بني زيان، الذين اتخذوها عاصمة لملكهم. أنجبت العديد من العلماء، بل الكثير من الأسر العلمية، التي ذاعت شهرتها، بفضل أبنائها الذين نبغوا في شتى العلوم والآداب والفنون، كأسرة العقباني، وأسرة المقري، وأسرة ابن الإمام، وأسرة ابن زاغو، وأسرة الشريف التلمساني، وأسرة ابن مرزوق، التي أتناول بالدراسة أحد أقطابها اليوم؛ إنه ابن مرزوق الحفيد. فمن يكون هذا الرجل؟ وما هي البيئة التي جعلت منه عالما متميزا؟ كيف كانت مكانته بين معاصريه؟ وما هي المآثر التي خلد بها ذكره؟

1 – التعريف بأسرة المرازقة:

تنحدر أسرة ابن مرزوق من أصول بربرية. فهي من بطون البرانس، من ولد قبيلة عجيسة البربرية. هاجرت من مواطنها بالقيروان مع نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، على عهد المرابطين، بعد نزول الهلاليين بها لتستقر بتلمسان[1]. ومن أفراد الأسرة المرزوقية الذين وفدوا من القيروان أيام حصار لمتونة لها، مرزوق وأخواه خلوف ومعافي، الذين جاؤوا من موطنهم بجبل ويسلات[2] بظاهر القيروان.

اشتغل مرزوق بالفلاحة، وابتنى لنفسه دارا بمرسى الطلبة بتلمسان. اشتهرت أسرته بالعلم والتقوى، إذ برز فيها علماء أجلاء، توارثوا العلم أبا عن جد. فمن الجد مرزوق، إلى ابنه محمد المكنى بأبي بكر، الذي غلبت كنيته على اسمه، إلى ولده أبي عبد الله الأكبر، الذي اشتغل بعلوم

القرآن وكتابة المصاحف على طريقة أهل الأندلس، إلى أبي عبد الله جد الجد، إلى الجد شمس الدين الخطيب، إلى أبي الحفيد وعمه، إلى جد الحفيد لأمه أبي العباس أحمد بن الحسين بن سعيد المديوني، إلى الحفيد (موضوع الدراسة)، إلى فروع الحفيد كابنه محمد المعروف بالكفيف، إلى أحمد بن مرزوق حفيد الحفيد[3].

2 – نسب ونشأة ابن مرزوق الحفيد:

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني. لقب بالحفيد ليميز عن غيره من علماء أسرة المرازقة. ويقصد بالحفيد، حفيد جده، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق العجيسي التلمساني المشهور بالخطيب[4]. ولد في تلمسان يوم الأحد 14 ربيع الأول 766هـ/09 ديسمبر 1365م. نشأ في بيئة علمية، فدأب على الرحلة في طلب العلم اقتداء بأجداده، حيث تنقل إلى المشرق والمغرب معلما ومتعلما. قال عنه التنبكتي في نيله نقلا عن تلميذه الثعالبي أنه قال:"قدم علينا بتونس شيخنا أبو عبد الله بن مرزوق، فأقام بها، وأخذت عنه كثيرا، وسمعت عنه جميع الموطأ...وختمت عليه أربعينيات النووي..."[5]. كما ذكره تلميذه أبو الحسن القلصادي في رحلته، وأكد بدوره أنه تلقى العلم على يده، وأنه كان كثير الترحال في سبيل العلم، فقال:"أدركت بتلمسان كثيرا من العلماء والعباد والصلحاء، وأولاهم بالذكر والتقديم، الشيخ الفقيه الإمام العلامة الكبير الشهير، شيخنا وبركتنا أبو عبد الله بن مرزوق العجيسي ﷺ...قطع الليالي ساهرا واقتطف من العلم أزاهر، فأثمر وأورق، وغرب وشرق...لقي الشيوخ الجلة الأكابر، وبقي حمده مغترفا من بطون الكتب وألسنة الأقلام وأفواه المحابر"[6].

3 – مناقبه:

تطرقت معظم كتب التراجم إلى مناقب مترجمنا، واتفقت جميعها على سمو أخلاقه ورفعةشأنه. فهذا تلميذه الثعالبي يقول عنه:"هو شيخي الإمام العلم، الصدر الكبير، المحدث الثقة، المحقق، بقية المحدثين، وإمام الحفظة الأقدمين والمحدثين، سيد وقته، وإمام عصره، وورع زمانه، وفاضل أقرانه، وأعجوبة زمانه، وفاروق أوانه، ذو الأخلاق المرضية، والأحوال الصالحة السنية، والأعمال الفاضلة الزكية"[7]. وعدد تلميذه الثاني القلصادي مناقبه، فقال:"كان ﷺ من رجال الدنيا والآخرة، وكانت أوقاته كلها معمورة بالطاعات ليلا ونهارا: من صلاة وقراءة قرآن، وتدريس علم وفتيا وتصنيف، وكانت له أوراد معلومة في أوقات مشهودة، وكان له بالعلم عناية تكشف بها العماية، ودراية تعضدها الرواية، ونباهة تكسب النزاهة"[8]. وذكر السخاوي أنه حج مرتين بقوله:"وحج قديما سنة تسعين وسبعمائة، رفيقا لابن عرفة...ثم حج سنة تسع عشرة وثمانمائة"[9].

4 – سعة علمه:

لم يقتصر اهتمام الحفيد بعلم واحد، بل تبحر في علوم شتى، وتفوق في الكثير منها. فقد أشار التنبكتي إلى تفوقه في تخصصات مختلفة. فعن الفقه قال:"وأما الفقه فهو فيه مالك، ولأزمة فروعه حائز ومالك، فلو رآه الإمام مالك لقال له: تقدم فلك العهد والولاية، وتكلم فمنك يسمع فقهي بلا محالة، أو رآه ابن القاسم لقر به عينا، وقال له: طالما دفعت عن المذهب عيبا وشينا، أو رآه المازري لعلم أنه من أقرانه الذي معه يباري، أو الحافظ ابن رشد لقال له: هلم يا حافظ الرشد، أو اللخمي لأبصر منه محاسن التبصرة، أو القرافي لاستفاد منه قواعده المقررة"[10].وعن تألقه في التفسير، أضاف التنبكتي قائلا:"إلى ما انضم إلى ذلك من معرفة التفسير ودرره، والإضطلاع بحقائق التأويل وغرره؛ فلو رآه مجاهد لعلم أنه في علوم القرآن العزيز مجاهد، أو لقيه مقاتل لقال له: تقدم أيها المقاتل، أو الزمخشري لعلم أنه كشاف الخافيات على الحقيقة، وقال لكتابه: تنح لهذا الحبر عن سلوك الطريقة، أو ابن عطية لعلم كم لله تعالى من فضل وعطية، أو أبو حيان لاختفى منه إن أمكنه في نهره"[11]. كما ألم مترجمنا بالحديث، وهو ما أكده صاحب نيل الإبتهاج بقوله:"إلى ما انظم إليه من الإحاطة بالحديث وفنونه، والاطلاع على رواياته، ومعرفة متونه، ونظم أنواعه، ووصف صنوفه،حتى صار إليه الرحلة في رواياته ودراياته، وعليه المعول في حل مشكلاته وفتح مقفلاته"[12].في علم النحو لمع وبرز، حتى نال إعجاب النحاة. يقول ابن مريم في هذا الصدد:"وأما النحو فلو رآه الزمخشري لتلجلج في قراءته المفصل، واستقل ما عنده من القدر المحصل، أو الرماني لاشتاق إلى مفاكهته وارتاح، واستجنى من ثمار فوائده وارتاح، أو الزجاج لعلم أن زجاجه لا يقوم بجواهره، وأنه لا يجري معه في هذا العلم إلا في ظواهره، ولو رآه خليل لأثنى عليه بكل جميل، ولقال لفرسان النحو: ما لكم إلى لحوق عربيته من سبيل"[13].ويضيف منوها بإحاطته بعلم البيان، فيقول:"وأما البيان، فالمصباح لا يظهر له نور عند هذا الصبح، وصاحب المفتاح لا يهتدي معه إلى الفتح، وما فهمه فعنه تنحط الشهب الثواقب، وبرؤية تحقيقاته يتحير الناظر ويقول: كم لله من مواهب لا تسعها المكاسب"[14].

5 – زهده وصلاحه:

عن زهد مترجمنا وصلاحه، يقول التنبكتي في نيله وابن مريم في بستانه:"فقد سارت به الركبان، واتفق على تفضيله وخيرته الثقلان، هو فاروق وقته في القيام بالحق، ومدافعة أهل البدع بالصدق، هو البحر، بل دون علمه البحر، هو البدر بل دون فلقه البدر، هو الدر، بل دون منطقه الدر، وبالجملة فالوصف يتقاصر عن صفاته، وفضلاء عصره لا يرتقون إلى صفاته،

فهو شيخ العلماء في أوانه، وإمام الأئمة في عصره وزمانه، شهد بنشر علومه العاكف والبادي، وارتوى من بحر تحقيقه الضمآن والصادي"[15].

6 – شيوخه:

نهل ابن مرزوق الحفيد من أوعية علمية مختلفة، بمسقط رأسه في البداية، ثم أثناء رحلاته العلمية الكثيرة مشرقا ومغربا بعد ذلك. يقول التنبكتي عن شيوخه بتلمسان:"أخذ العلم عن جماعة كالسيد الشريف العلامة أبي محمد عبد الله ابن الإمام العلم السيد الشريف التلمساني، والإمام عالم المغرب سعيد العقباني، والولي الصالح أبي إسحاق المصمودي...والعلامة أبي الحسن الأشهب الغماري، وعن أبيه وعمه ابني الخطيب ابن مرزوق"[16]. كما ذكر الشيوخ الذين أخذ عنهم أثناء رحلاته العلمية خارج تلمسان، حيث قال:"وبتونس عن الإمام ابن عرفة وأبي العباس القصار، وبفاس عن الأستاذ النحوي ابن حياتي، والإمام الشيخ الصالح أبي زيد المكودي، والحافظ محمد بن مسعود الصنهاجي الفلالي في جماعة، وبمصر عن الأئمة السراج البلقيني والحافظ أبي الفضل العراقي والسراج ابن الملقن والشمس الغماري والمجد الفيروزآبادي صاحب القاموس، والإمام محب الدينبن هشام ولد صاحب المغنى، والنور النويري، والولي ابن خلدون، والقاضي العلامة ناصر الدين التنسي"[17]. كما أورد صاحب الضوء اللامع بعض شيوخه في قوله:"تلا لنافع على عثمان بن رضوان بن عبد العزيز الصالحي الوزروالي، وانتفع به في القراءات والعربية، وبجده وابن عرفةفي الفقه وغيره، وأجاز له أبو القسم محمد بن محمد بن الخشاب، ومحدث الأندلس محمد بن علي بن محمد الأنصاري الحفار، ومحمد بن محمد بن علي بن عمر الكناني القيطاجي، وعبد الله بن عمر الوانغلي وآخرون...وسمع من البهاء الدماميني بالإسكندرية، ونور الدين العقيلي النويري بمكة، وفيها قرأ البخاري على ابن صديق، ومن البلقيني وابن الملقن والعراقي وابن حاتم بالقاهرة، ولازم بها المحب بن هشام في العربية"[18].

إن هذه الرحلات التي قام بها ابن مرزوق في طلب العلم، ولقاؤه عددا كبيرا من المشايخ، قد أفاده كثيرا؛ لأن البشر كما يقول ابن خلدون:" يأخذون معارفهم وأخلاقهم تارة علما وتعليما وإلقاء، وتارة محاكاتا وتلقينا بالمباشرة. إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا. فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها"[19]. فيبدو أن أثر الرحلة ولقاء الشيوخ كان واضحا في شخصية الحفيد، الذي تألق وتفوق في علوم شتى، وألف ما لم يؤلفه أقرانه ومعاصروه.

7 – تلامذته:

لم يبخل الحفيد بما أتاه الله من علم، حيث انتصب للتدريس، فتتلمذ عليه طلبة كثر، من هؤلاء من ورد ذكرهم على لسان صاحب نيل الإبتهاج عندما قال:"وأخذ عنه جماعة من السادات، كالشيخ الثعالبي، وقاضي الجماعة عمر القلشاني، والإمام أبي عبد الله محمد بن العباس، والعلامة نصر الزواوي، والولي الصالح الحسن أبركان، والشيخ أبي البركات الغماري، والإمام أبي الفضل المشدالي، والسيد الشريف قاضي الجماعة بغرناطة أبي العباس بن أبي يحي الشريف، وأخيه أبي الفرج، والشيخ إبراهيم بن قائد الزواوي، وأبي العباس أحمد بن عبد الرحمن الندرومي، والشيخ العلامة المؤلف علي بن ثابت، والشهاب ابن كحيل التجاني، وولده العالم محمد بن محمد بن مرزوق الكفيف، والعلامة أحمد بن يونس القسنطيني، والعلامة يحي بن يدير، وأبي الحسن القلصادي، والحافظ القلصادي، والشيخ عيسى بن سلامة البسكري، والحافظ التنسي التلمساني، والإمام ابن زكري"[20].

8 – مؤلفاته:

انتفع الناس بالحفيد لما كان على قيد الحياة، بما قدمه من معارف لمن درس عليه، ثم بعد وفاته بما خلفه من مؤلفات في كثير من التخصصات أبرزها:

- شروحه الثلاثة على البردة، حمل الشرح الأكبر اسم "إظهار صدق المودة في شرحة البردة"، أجاد فيه، وضمنه سبعة فنون في كل بيت. أما الشرح الأوسط والأصغر فسماه"الإستيعاب لما فيها من البيان والإعراب".

– شرح ابن الحاجب الفرعي.

– شرح التسهيل.

–المفاتيح القرطاسية في شرح الشقراطيسية.

– المفاتيح المرزوقية في استخراج رموز الخزرجية.

– عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمة التقليد.

– الآيات الواضحات في وجه دلالة المعجزات.

– الدليل الواضح المعلوم في طهارة كاغد الروم وإسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الأم.

– رجزان في علوم الحديث، سمى الأول "الروضة"، والثاني مختصرا سماه"مختصر الحديقة".

– أرجوزة في الميقات سماها"المقنع الشافي"، في ألف وسبعمائة بيت.

– أرجوزة ألفية في محاذاة الشاطبية.

– أرجوزة نظم تلخيص المفتاح.

– أرجوزة نظم تلخيص ابن البنا.

– أرجوزة نظم جمل الخونجي.

– أرجوزة في اختصار ألفية ابن مالك.
– نهاية الأمل في شرح الجمل.
– اغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة، أجاب فيه عن مسائل جاءته من عالم قفصة أبو يحي بن عقيبة، في الفقه والتفسير.
– المعراج إلى استمطار فوائد الأستاذ ابن سراج، أجاب فيه عن مسائل نحوية ومنطقية، طرحها ابن سراج قاضي الجماعة بغرناطة.– نور اليقين في شرح أولياء الله المتقين.
– الدليل المومي في ترجيح طهارة الكاغد الرومي.
– النصح الخالص في الرد على مدعي رتبة الكامل للناقص، ألفه في الرد على قاسم العقباني في فتواه في مسألة الفقراء الصوفية، في أشياء صدق العقباني صنيعهم فيها، فخالفه ابن مرزوق.
– مختصر الحاوي في الفتاوي، لابن عبد النور التونسي.– الروض البهيج في مسألة الخليج.
– أنواع الدراري في مكررات البخاري.
– تآليف في مناقب شيخه إبراهيم المصمودي.
– تفسير سورة الإخلاص[21].

يبدو أن انشغال ابن مرزوق الحفيد بالرحلة، وانتصابه للتدريس، لم يصرفه عن التأليف، إذ قلما نجد من خلف كتبا بهذا الكم، وفي تخصصات متعددة. هذا ناهيك عما تركه من مؤلفات عاجله أجله قبل أن يكملها، منها:

- المتجر الربيح والسعي الرجيح والمرحب الفسيح في شرح الجامح الصحيح (صحيح البخاري).
– روضة الأريب في شرح التهذيب.
– المنزع النبيل في شرح مختصر خليل.
– إيضاح المسالك على ألفية ابن مالك[22].

9 – وفاته:

بعد حياة مليئة بالعطاء تعليما وتأليفا وإفتاء، توفي ابن مرزوق الحفيد يوم الخميس 14 شعبان سنة 842هـ، وصلي عليه بالجامع الأعظم بعد صلاة الجمعة، ودفن بالروضة غربي المسجد[23]. وما حضور السلطان أبو العباس أحمد العاقل بن أبي حمو موسى الثاني(834-866/1431-1462) جنازته، إلا دليل على علو مكانته.

خاتمة:

يعد ابن مرزوق الحفيد واحدا من أقطاب العلم بتلمسان في عهد بني زيان. فقد تفوق على أقرانه ومعاصريه في كثير من العلوم والفنون، حيث درس وأفتى وألف، فذاع صيته في الشرق والغرب، بما حلاه الله من علم وأدب، فانتفع به الناس حيا لغزارة علمه، وبعد موته لكثرة تآليفه. فصدق من قال في شأنه:

حـــلف الـــزمان ليأتـــين بمثلـــه حنـــث يمينـــك يا زمـــان فكفـــر.

الهوامش:

1- أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 15. يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، تحقيق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980، ص 114.

2- جبل ويسلات : هو جبل بضواحي القيروان، به ينابيع مياه كثيرة، كانت مصدرا لتزويد المدينة بمياه الشرب. عرف هذا الجبل باسم أسيلاطوم عند الرومان، ومطمور عند العرب، ويسمى حاليا أسلات. ينظر: حسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2، تعريب محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1983، ص 90.

3- أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني، المناقب المرزوقية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، دراسة وتحقيق سلوى الزاهري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2008،ص ص 147-149.

4- عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج7، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل دكار، دار الفكر، بيروت، 2000، ص 370. المقري(أحمد بن محمد)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج5، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988، ص 412.

5- أحمد بابا التنبكتي، نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، ج2، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2004ن ص 176.

6- القلصادي(أبو الحسن علي)، رحلة القلصادي، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978، ص 96.

7- ابن مريم المليتي المديوني التلمساني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، تحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، 2014، ص 372.

8- القلصادي، المصدر السابق، ص 97.

9- السخاوي(شمسالدينمحمدبنعبدالرحمن)، الضوءاللامعلأهلالقرنالتاسع،ج7،دارالجيل،بيروت،ط1، 1992، ص 50. ابن مريم، المصدر السابق، ص 376.

10- نفسه، ص ص 366-367.

11- نفسه، ص 367.

12- التنبكتي، نيل الإبتهاج...، المصدر السابق، ج2، ص 173.

13- ابن مريم، المصدر السابق، ص ص 367-368.

14- نفسه، ص 368.

15- نفسه، ص 368. التنبكتي، المصدر السابق، ج2، ص 174.

16- التنبكتي(أحمد بابا)، المصدر السابق، ج2، ص 179.

17- التنبكتي(أحمد بابا)، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ج2، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 2000، ص 141.

18- السخاوي، المصدر السابق، ج7، ص 50.

19- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تحقيق وتعليق محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة القاهرة، 2005، ص 692.

20- ابن مريم المليتي المديوني التلمساني، المصدر السابق، ص 375. التنبكتي، نيل الإبتهاج...، ج2، المصدر السابق، ص ص 179-180.

21- ابن مريم، المصدر السابق، ص ص 376-377. السخاوي، المصدر السابق، ج7، ص 50. التنبكتي، كفاية المحتاج، ج2، المصدر السابق، ص 142.

22- التنبكتي، نيل الإبتهاج...، المصدر السابق، ج2، ص 181.

23- القلصادي(أبو الحسن علي)، المصدر السابق، ص ص 97-98.